٣

للمـــرآة وجهـــان

كان لدى خيار أن أصبح لاعب كرة قدم محترفاً أو أن ألتحق بالجامعة. أخطأت والتحقت بالجامعة

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجيليس اليهودية، فى ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٨

عقب إنهائه خدمته العسكرية توجه أرنون إلى جنيف، ليستكمل دراساته، وهذه المرة، ركز على تخصص الكيمياء ليستعد لتولى شركة الأسمدة الخاصة بعائلته.

وفى سويسرا تخلص مجدداً من مصادر قلقه، إذ استأنف ممارسة كرة القدم وبدأ صيته ينتشر كفتى لعوب. كان فتى وسيماً واسع العلاقات ولا حدود لإمكانياته.

وبزيادة نضجه، بدت أعراض نشاطه المفرط أقل وضوحاً. وتعلم ببطء كيف يكيف سلوكه وكيف يتحكم فى حركات جسده الواضحة مثل تململه المفرط والذى كان ملازماً له من قبل. وبينما كان يدرس فى الخارج بدا أرنون أكثر شغفاً بالتنس وهو شغف استمر معه طيلة حياته. واكتشف أرنون أيضاً السينما الأوروبية فى جنيف.

وذات يوم وفى رسالة أليمة من الديار، تلقى أرنون صدمة غير متوقعة غيرت حياته إلى الأبد، مفادها تدهور صحة والده دوف بشدة بحيث أصبح مُقْعَداً. وفى

تلك اللحظة فى عام ١٩٦٥، انقضت فجأة حياته الخالية من الهموم فى جنته الأوروبية. وفى لمح البصر توقفت لأجل غير مسمى البيئة المرفهة المنظمة المنفتحة على العالم والتى كان قد اعتادها.

وما أن سمع بالخبر، سيطر عليه خوف لم يعرفه من قبل. وحزم أمتعته وحجز فى أول رحلة طيران ليعود لأرضه القاسية ولعالمه المضطرب، وبلده الذى كان آنذاك لا يعدو موقعاً منعزلاً شديد الصغر فى الشرق الأوسط.

وما أن أقلعت الطائرة من مطار جنيف الدولى، حدق ببصره خارج النافذة الصغيرة إلى المزارع السويسرية البديعة من تحته ولم يجد بداً من التفكير فى جده حاييم إليعازر ميلتشان، والذى كان مقرباً منه للغاية طيلة حياته حتى وفاته العام السابق. كانت تلك أول مرة يتعرف فيها على حقيقة الموت وعلى فقدان شخص

مقرب إليه. وتذكر كيف أنه لم يستطع التحكم فى بكائه، وبدأ يهيئ نفسه لما تخيل أنه ربما سيكون صدمة أقوى.

ومن المطار هرع أرنون إلى مستشفى إشيلوف فى تل أبيب. وانطلق يصعد ستة أدوار على الدرج إلى حيث يرقد والده ذو الـ٥٤ عاماً على أعتاب الموت. وما أن وصل إلى جوار والده دوف، بينت له شوشانا أن ما بدأ كعدوى فى البنكرياس تطور إلى عفن بكتيرى أصاب قلب دوف ورئتيه وكليتيه.

وفى الأيام التالية رفض أرنون أن يترك جوار أبيه، ومضى يتتبع كل حركة يأتى بها وكل أنفاسه، عازماً على مساعدته فى تخطى تلك الأزمة.

وخلال بضعة أسابيع فوجئ أطباء دوف المعالجون بتحسن حالته بشكل إعجازى وتم إرساله إلى مؤسسة لإعادة التأهيل فى كيبوتس جيفات برينير. وتنفست العائلة الصعداء. وبدأ أرنون يعد عدته للعودة إلى جنيف، وفجأة أخذت الأمور منحنى سيئاً.

عانى دوف من آلام حادة مبرحة فى معدته تم تشخيصها بأنها أزمة من حصوة بالمرارة. وفى حالته الهزيلة تلك، تم إدخاله على عجالة إلى غرفة العمليات، والتى لم يخرج منها حياً. وإلى يومنا هذا لا يزال أرنون يعتقد بأن موت والده جاء كنتيجة غير ضرورية للإهمال الطبى.

وصلت العائلة الممتدة إلى المقابر فى روحوفوت ونُحيت الخلافات القديمة القائمة بينما غمرت موجة عارمة من المشاعر كل الحاضرين. دفن دوف بالقرب من والديه، حاييم وإستر، وفجأة تكشف لأرنون ابنه الوحيد، أنه فقد نظام الدعم المالى والمعنوى الوحيد والذى عرفه يوماً، وتحامل على نفسه ليبدو متماسكاً إلا أن دموعه غلبته. وتحققت كل مخاوفه. وألقى على كاهله حمل ثقيل فجأة، إذ أدرك أن عائلته

ستعتمد عليه الآن فى القيادة والقوة والمعيشة. وخشى ألا يكون مستعداً لتلك المسئولية، إذ كان فى الحادية والعشرين من عمره فقط.

ومن خلال دموعه، لاحظ أرنون العديد من الناس الذين لا يعرفهم فى الجنازة، وهم يمرون بالقبر ويضعون عليه الحجارة كتعبير أخير عن الاحترام. وكان هناك رجل طويل ونحيف صارم الملامح يقف على مسافة خلف المعزين، ولم يقترب من أرنون إلا لدى انصراف الحضور بعد مراسم الدفن ليقدم له تعازيه الشخصية وهمس فى أذنه بصوت خافت:

كان أبوك رجلاً مهماً قدم العديد من الأشياء الهامة لإسرائيل. أعرف أنك ستسير على خطاه.

وبعد الجنازة بفترة وجيزة، ذهب أرنون إلى مكتب والده الصغير فى سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب. كان المشهد قذراً وعلى النقيض تماماً من شوارع جنيف المعتنى بها جيداً. وبينما كان يشق طريقه وسط الدجاج المتصايح والفضلات الزراعية، فجأة تجدد تقديره للتضحيات التى قدمها والده لأجله. ودخل المكاتب المتواضعة الكائنة فى مقدمة مخزن صغير، حيث أحيط سريعاً بموظفى الشركة القلائل ليعبروا له عن تعاطفهم.

وبدأ أرنون يتولى مسئولية شركة العائلة ميلتشان برازرس ليمتد، واقتحم العالم الجديد بكثير من حماس الشباب، عازماً على الحفاظ على إرث العائلة، بالرغم من أنه سرعان ما سيكتشف أنه ليس لديه أدنى فكرة عن حقيقة إرث العائلة ذاك.

كان دوف قد عزل زوجته وابنته وابنه تماماً عن أى شىء يتعلق بشركة العائلة وبالشئون المالية، وكانوا كلهم يجهلون تعقيدات الشركة إلى حد كبير.

كانت توقعات أرنون لنفسه وللشركة التى تولى زمام أمورها تكاد تبلغ عنان السماء، لكنه أعيد قسراً إلى أرض الواقع عندما ألم بحالة الشركة المالية المزرية.

كان قد تم تخفيف قواعد الاستيراد ومن ثم تخلخلت هيمنة الشركة الاحتكارية بشدة فى مجال الأسمدة. وبدأ المزارعون يستوردون مباشرة من المصنعين بالخارج، متجاوزين فى ذلك كل التجار الإسرائيليين. وصدم أرنون عندما عرف أن إجمالى احتياطى الشركة يقدر بـ٦١ ألف ليرة إسرائيلية. وفى هذا يقول أرنون:

بدا الموقف محبطاً. وكانت شركة ميلتشان إخوان على حافة الإفلاس، ولم أفهم ذلك بشكل كلى، وفى الأيام التالية، بدأ المتربصون يحاصروننا.

بدأ منافسون عدة وبائعون بل وبعض الموظفين فى تحدى خبرة المالك الجديد وقوة تحمله فى العمل، وأجبر أرنون على صد الكثير من المكائد التى حيكت للدفع به خارج المنافسة.

وبينما كان يجلس محبطاً فى مكتب والده يفكر فى مصيبته، لاحظ عدة خزائن لم يتفحصها بعد فى أحد الأركان. وبعدما نظر إليها بفضول للحظات، سار إليها وفتح الأدراج، وأخرج منها أكبر قدر ممكن من الملفات وحملها إلى المكتب ليدرسها.

وخلال لحظات أصبح مكتبه مفروشاً بصور لصواريخ غزو الفضاء وبنشرات فاخرة. وفجأة تكشفت لأرنون حقيقة أن والده كان ضالعاً فى عمل أبعد بكثير من تجارة الأسمدة .

كان والد أرنون من نوعية الأشخاص الحذرين، وخاصة فى الأمور المتعلقة بالأمن القومى. احتفظ لنفسه بجميع المعلومات الضرورية، ولذا لم يكن لأحد آخر أن يعرفها.

كان دوف قد عزم على إطلاع ابنه على هذا الجانب من عمل شركة ميلتشان إخوان، لكن موته المفاجئ حال دون الانتقال المنظم لما افترض أنه سينفذه في عدد من السنين. بالنسبة لأرنون كان ذلك تحولاً صادماً في الأحداث. والآن فقط بدأ يفهم الكلمات التي قيلت همساً في أذنه في جنازة والده، وسبب حضور هذا الشخص الغامض إلى الجنازة.

أجرى عدة مكالمات هاتفية واستجوب طاقم السكرتارية الصغير، والذين كانوا بدورهم لا يعرفون شيئاً. وكما تبين له، فقد كانت شركة ميلتشان إخوان ضالعة في عمليات استيراد وتصدير معدات دفاع عسكرية لصالح الدولة، ووفقاً لأرنون فقد كان والده قد حصل على بعض العقود العسكرية المربحة الخاصة بإسرائيل.

لم يكن مفاجئاً بل وربما كان متفهماً، أن البعض استنتجوا أن أرنون كان شخصاً ضعيفاً سهل الانقياد. ثم تبين أنهم على خطأ بدرجة شديدة الإحراج. لم يكن لدى الأباطرة الكُثُر الذين حاولوا إقصاءه مراراً وتكراراً أية فكرة مع من يتعاملون، وبخسوه قدره بشكل فادح.

سرعان ما تحرك ميلتشان ليحكم قبضته على الشركة. وبطاقة الشباب تواصل مع كل الموردين، وشرح لهم الموقف، وأقنعهم بأسلوبه الساحر على زيادة الحدود الائتمانية.

وبدأ بعد ذلك في تكوين فريقه الخاص. ومن بين أول خطواته استغل إجازة الوضع لمديرة مكتبه، واستدعى قائدة وحدته العسكرية السابقة ديبورا بن إسحاق، وطلب منها أن تشغل تلك الوظيفة الشاغرة لثلاثة أشهر، والتي تحولت لرحلة عمل مثيرة امتدت لثلاثين سنة.

ربما كان أرنون ساذجاً ويفتقر للخبرة، لكن هذا نفعه بطريقة ما. إذ تمتع بثقة

لن يتمتع بها سوى شاب ليس لديه أدنى دراية بما لا يجوز له فعله.

وفى فترة وجيزة للغاية، حوّل الشركة الصغيرة والتى كانت معنية فى الأغلب بالسمسرة فى الأسمدة الزراعية المستوردة والكيماويات للمزارعين المحليين إلى مؤسسة ضخمة على الساحة الدولية، لها صفقات بعشرات الملايين من الدولارات، وأكثر من ذلك بكثير لاحقاً. ومد يده لكل شركات الأسمدة والكيماويات الكبرى فى أوروبا والولايات المتحدة، ساعياً ليكون ممثلهم الحصرى فى إسرائيل.

لكن اختراعاً واحداً، وبراءة اختراع واحدة، وصفقة واحدة، ومقامرة واحدة هى التى أمنت المركز المالى للشركة ودفعته إلى مستوى أعلى: تضمنت تلك منتجاً إسرائيلياً لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا من أهم الاختراعات الحيوية من بلد صغير أصبح بمرور الوقت منبع الابتكارات فى العالم.

حدث هذا بالصدفة البحتة، وبينما بدأت محاولات أرنون اليائسة لإنقاذ الشركة تؤتى أكلها، بعد التعاقد مع الشركتين السويسريتين ساندوز وسيبا غايبى، حدد موعداً لاجتماع فى ثانى أكبر مصنع للكيماويات فى العالم أى دوبونت فى ويلينغتون، ديلاوير. وأثناء تلك الرحلة الطويلة أخذ يفكر فى عدم فاعلية السماد الحالى الذى توزعه شركة ميلتشان إخوان.

وبالصدفة كان الشخص الغريب الجالس إلى جانبه فى الطائرة مديراً تنفيذياً متحمساً من كندا لشركة لقطع الأشجار وتحويلها إلى أخشاب. وأثناء حديثهما العابر انبهر ميلتشان إذ عرف أن لحاء الأشجار لا يستخدم فى أى منتج، وأنه كان ببساطة يتم التخلص منه بعد تصنيع الأخشاب.

وانتابه الفضول بشأن المكون الكيميائى للحاء الأشجار، وتساءل ما إن كانت هناك أى فوائد سمادية ممكنة لهذا المنتج الثانوى، والذى كان يعتبر آنذاك من المخلفات.

وما أن وصل، حتى شارك أفكاره مع مدراء دوبونت، والذين كانوا فى حيرة من أمرهم بشأن رجل الأعمال الإسرائيلى الشاب المتحمس وأفكاره الغريبة بشأن اللحاء. وأحالوه إلى المدير الوحيد اليهودى فى الشركة آنذاك، ويُدعى إرفينغ سول شابيرو وكان محامى الشركة.

وانبهر شابيرو بميلتشان ودعاه لقضاء العطلة الأسبوعية فى منزله. ودعا أيضاً مجموعة من المجتمع المحلى اليهودى للقاء الشاب الإسرائيلى ولسماع حكاياته من البلد الذى يخوض صراعات كثيرة. وبحلول يوم الاثنين، كان ميلتشان قد كون صداقة حميمة مع شابيرو، وأبرم عقداً للتمثيل الحصرى لدوبونت فى إسرائيل، وتلقى تعهداً بتمويل أبحاث اللحاء هناك.

وبفضل عقد ميلتشان، أصبح شابيرو مدير شركة دوبونت ورئيس مجلس إدارتها من عام ١٩٧٣ إلى ١٩٨١ . وكانت تلك بداية صداقة طويلة وحميمة مع الشركة، والتى أصبحت جزءاً أصيلاً من مانهاتن بروجيكت وهى المجموعة البحثية التى طورت القنبلة النووية فى الحرب العالمية الثانية، والتى تعد مُورّداً قديماً للمواد النووية وتلك المتعلقة بالدفاع العسكرى.

بعد رحلته الناجحة ولدى عودته إلى إسرائيل، عين ميلتشان أربعة مهندسين زراعيين من كلية الزراعة التابعة للجامعة العبرية فى روحوفوت، والذين توصلوا لتركيبة سماد من لحاء الأشجار بهدف تجربتها. لكن لم توافق أية مزرعة فى إسرائيل على اختبار تلك التركيبة فى بساتينها.

وبعد بحث مطول وقاس، توصل ميلتشان لاتفاق مع كيبوتس كفار هاناسى فى الجليل الشمالية، حيث وافقت الإدارة على تجربة التركيبة على جزء من حقولها فى مقابل تمويل ميلتشان لعيادة أسنان فى الكيبوتس، ووافق ميلتشان بشرط تسمية

العيادة باسم أبيه الراحل، والتزم الكيبوتسيون بذلك.

وفشلت التجربة، لكن ميلتشان رفض الاستسلام. وفي النهاية أدرك وفريقه أن السماد سيكون بأضعاف فاعليته إن تم تطويره في هيئة رذاذ، وتم رش أوراق الأشجار وأغصانها به مباشرة، وأتقنت التركيبة بمرور الوقت وأثبتت أنها منتج هام وثوري لكل مزارعي الموالح حول العالم.

وبالإضافة لفاعليتها الزراعية، حققت المادة المغذية المعروفة باسم إن يو غرين أرباحاً هائلة لكل من شركة دوبونت وميلتشان على السواء واستمر هذا النجاح حتى يومنا هذا.

"الرجل الذي حقق ثروة بالتلاعب في الطبيعة" هكذا وصفه زميل له لاحقاً، وأكد أنه منذ أن انخرط ميلتشان في مجال الأسمدة، تغير طعم البرتقال إلى الأبد.

وبدأت الطلبات تنهال عليه، من إسرائيل في البداية، ولاحقاً من كل أنحاء العالم. وولدت أسطورة ميلتشان الذي كون ثروة سريعاً، وسرعان ما انتشرت في أرجاء البلد الصغير.

وبمرور الوقت تواصل مع المزيد من شركات الكيماويات والتكنولوجيا الحيوية، بما فيها أكبر الشركات عالمياً، مثل شركة باير الألمانية، وسنيجينتا السويسرية، وكيموترا وسيدكو.

وبشراكته مع تلك الشركات، لعب ميلتشان دوراً رئيسياً في إجراء تجارب ميدانية إضافية أدت مباشرة إلى زيادات كبيرة في الإنتاج الزراعي في إسرائيل في الستينيات والسبعينيات.

تلك التقنيات التي صدرتها لاحقاً شركة ميلتشان إخوان وشركات أخرى،

أفادت البلدان النامية حول العالم.

وبقدر أهمية جهوده الزراعية، فمن الواضح أيضاً أنه، وبمرور الوقت، أصبحت تلك المساعي أقرب للغطاء الملائم لمصادر نجاحه الساحق، أي العقود المتعلقة بالدفاع العسكري ومثل ما حققه في القطاع الزراعي، فقد سوّق لدولة إسرائيل بصفتها حقل التجارب الرئيسي لأحدث أنظمة الأسلحة بين أكبر شركات الديناميكا الهوائية في العالم.

واشترك ميلتشان في جميع المجلات المتعلقة بالدفاع العسكري، وبخاصة الإصدارات المتعلقة بالطيران، وسرعان ما ألم بأسماء جميع الشركات الهامة المصنعة لمعدات الدفاع ودرس أحدث التطورات في مجال الطيران وفي الأنظمة الإلكترونية العسكرية. وبعث برسائل لا تحصى يعرف فيها بنفسه لشركات تصنيع معدات الدفاع العسكري حول العالم ويعرض عليها فيها تمثيلها في إسرائيل. وكان من المفاجئ أن أبدت العديد من الشركات اهتمامها وطلبت تحديد مواعيد معه. وسرعان ما أخذ ميلتشان يجوب أوروبا ويوقع عقود تمثيل الشركات.

كانت كل الصفقات المتعلقة بالدفاع العسكري في ميلتشان إخوان تدار من قبل مالك الشركة نفسه، أولاً الأب، ومن بعده ابنه. وبدأت إسرائيل في شراء الأسلحة من الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ بموافقة إدارة كينيدي، لكنها لم تتلق أية مساعدة عسكرية حتى عام ١٩٧١ عندما خصص الكونجرس لأول مرة مبلغاً محدداً معونة لدولة إسرائيل.

وكنتيجة لذلك، اضطرت إسرائيل للاستدانة لتمويل تنميتها الاقتصادية وشراء الأسلحة. لكن منذ عام ١٩٧٤ عقب حرب أكتوبر، تلقت إسرائيل ما يقرب من ١٠٠ مليار دولار من المعونة العسكرية، وتتلقى حتى يومنا هذا ما يزيد عن مليارى دولار

كمعونة عسكرية سنوياً. وبموجب القانون، يجب أن ينفق كل مبلغ المعونة العسكرية الأمريكية لإسرائيل فى الولايات المتحدة فى شراء أنظمة الأسلحة الأمريكية.

كان لجميع الشركات المرخص لها استيراد وتصدير أنظمة الدفاع العسكرى من وإلى إسرائيل، بالإضافة إلى قدرتها على توقيع اتفاقات تمثيل حصرية وعالية الربحية مع كبار شركات مقاولات الدفاع العسكرى الأمريكية، أن تحقق نجاحاً كبيراً.